
المنظومة
ALMANDUMAH


المنظومة
ALMANDUMAH

الموصل في مذكرات الرحالة الأجانب خلال الحكم العثماني

أ.م.د. سمير عبد الرسول العبيدي*

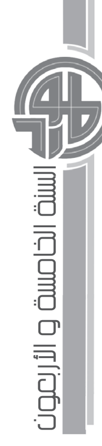
● تقديم :

من وسط العراق إلى شماله، يقودنا د. سهيل قاشا[1] إلى الموصل، وهي في «معجم البلدان» «المدينة المشهورة العظيمة، إحدى قواعد بلاد الإسلام، قليلة النظير كِبراً وعِظَماً وكثرةَ خلق وسعة رُقعة، فهي محط رحال الركبان ومنها يقصد إلى جميع البلدان، فهي باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يقصد إلى أذربيجان»، قالوا «وسمّيت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق، وقيل وصلت بين دجلة والفرات»، ويبدو أن صفة «الوصل» هي صفتها على مرّ العصور، وهذا ما يؤكده في كتابه، مشيرا إلى أن لفظة الموصل «تعني مكان اللقاء أو المواجهة أو عقدة المواصلات»، والمدينة التي تحمل هذا الاسم «هي في حقيقة الأمر تشبه الإقليم، محل التقاء اللغات والمعتقدات»، وولاية الموصل امتداد لهذا الإقليم، «ومن النادر أن يجوب المرء وهو يجوب سهل الموصل العظيم قريتين متجاورتين يقطنهما الجنس نفسه ويتكلم أهاليهما لغة واحدة ويعبدون إلها واحدا».

لقد تبدّلت حال ولاية الموصل في زمن العثمانيين، وتحولت أرضاً موبوءة مضطربة، لكنها عاشت فترة ذهبية في حكم الأسرة الجليلية الذي استمر من سنة (١٧٢٦م) إلى سنة ١٨٣٤م. وقد بقيت طويلا زعيمة للأرستقراطية المسلمة في هذه الولاية، وقد حكمتها بصورة شبه مستقلة إلى أن ضُمّت المقاطعة تحت الحكم العثماني المباشر.

استعاد د. سهيل قاشا هذه المرحلة في دراسة نُشرت عام (١٩٧٨م) في مجلة «بين النهرين» تحت عنوان «الموصل في مذكرات الرحالة الأجانب في فترة الحكم العثماني ١٥٣٤- ١٩١٨م».

(*)مركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية/قسم الدراسات التاريخية



وكتابه الصادر حديثا مراجعة مفصلة لهذه الدراسة. يتألف الجزء الأول (ص٩-٧٣) من الكتاب من خمسة أقسام تناولت تباعاً نظام الحكم والإدارة (ص٩-٢٥)، والحياة الاجتماعية (ص٢٥-٣٥) حيث تناول المؤلف الحياة الاجتماعية.. وإحصاء السكان وطوائف وعادات السكان وكذلك عادات وتقاليد المرأة الموصلية ..وأزياء الرجال والنساء في تلك الفترة، والحياة الثقافية في عهد الحكم العثماني (ص٣٥-٤٤)، والحياة الاقتصادية (ص٤٤- ٥٨)، إذ تناول المؤلف أنماط الزراعة والصناعة والتجارة، والحالة العمرانية (ص٥٨-٧٣) من خلال الأسوار والحصون التي كانت تستخدم والدور والقصور والخانات والأسواق والحمامات.

شمل الجزء الثاني (ص٧٥-١٥٠) نص رحلة الرحالة الفرنسي هنري بنديه[٢] (رحلة إلى كردستان في بلاد مابين النهرين الذي زار الموصل للمدة (٨ /١٠-١٥/ ١٠/ ١٨٨٥م) مع عدد من المرافقين، وهذا النص مقتطف (ص٣٢-٩٤) من يوميات بنديه، والتي نقلها إلى العربية د. يوسف حبي (١٩٣٨-٢٠٠٠م)، وتم نشرها في عام (٢٠٠١م) عن (دار ئاراس للطباعة والنشر، اربيل، ١٦٦ صفحة), وقد اختار المؤلف منه «ما يخص مدينة الموصل وحياتها الاجتماعية والاقتصادية والفكرية». ويختتم الكتاب بالقسم الثالث (ص١٥١-١٧٤) حول «الموصل عام (١٩٢٤م)»، وهو ختام الحديث عن المدينة القديمة، حيث يربط بين الماضي السحيق والماضي القريب بأسلوب لا يخلو من النفس العاطفي. وسنعرض في هذا المبحث للكتاب بحكم أهميته التاريخية وطبيعته الموسوعية.

يُلقي هذا (الكتاب الموسوعة) الضوء بطريقة علمية متسلسلة على أنماط الحياة التعددية التي تميزت بها الموصل على مر العصور المتعاقبة، وقد أدهشت هذه التعددية الرحّالة الذين زاروها وأقاموا فيها في فترات عدة. عاش المسيحيون مع المسلمين، وكانت العلاقة متآلفة بين طوائف الجماعتين في كثير من الأحيان، وقد أشار الرحالة نيبور إلى هذا التفاؤل بعد زيارته الولاية في عام (١٧٦٦م)، وكتب في يومياته: «حالة النصارى في الموصل أحسن بكثير من حالة النصارى في بقية بلدان الإمبراطورية العثمانية فهم يعيشون سعداء على وئام تام مع المسلمين، ولهم الحق في أن يلبسوا كما يلبس المسلمون، وكثير منهم يعملون في خدمة الباشا». بدوره، شهد الميجر سون لهذا الوفاق عندما زار البلاد في أواخر القرن التاسع عشر، ورأى أن نصارى الموصل يتمتعون بالحرية، «وهم بمنجاة من الاضطهاد»، و «إنهم يردّون هذه المزية والحال المستحبة إلى أنّ المسلمين والنصارى عرب في الإحساس واللغة، وفوق كل شيء هم مرتبطون برابطة التساكن في المدينة، وهي رابطة قوية في الغالب وملمح تراص في مدن الشرق المنعزلة».

زار المبشر الانكليزي ويكرام هذه المنطقة في مطلع القرن العشرين، ووضع عنها كتابا عنوانه «مهد البشرية»، ولهذا العنوان أكثر من دلالة، «فإن الأجناس التي تقطن هذه الديار واللغات التي تتكلمها والتقاويم الشهرية التي تستخدمها تأخذ المرء بعيدا عن العصور الأولى لنشوء الحضارات إلى مراحل في تاريخ العالم تبدو الآن سحيقة في القدم». جمعت الموصل بين العرب والكرد المسلمين، وضمّت طوائف مسيحية عديدة، كما أنها حوت «بقايا السبي

البابلي المتمثل بالفرس واليهود الناطقين بالآرامية، والأزيديين»، و «الشبك» كما نجد في الموصل عوائل من «المندائيين أو ما يسمّون بالنصارى أتباع يوحنا المعمدان»، وهم طائفة من محترفي صياغة المعادن الثمينة.

أثارت المدينة مشاعر عدة في نفوس من زارها من الرحالة، وتعددت الآراء في وصفها، فمنهم من وصفها بـ «مدينة الطين» و«مرتع المرض والرعب»، ومنهم من شبّهها بمدن جنوب إيطاليا. جمعت المدينة القديمة بين الماضي والحاضر كما تشهد بعض المواقع الأثرية، مثل جامع النبي يونس (ع) المبني فوق موقع قصر أسرحدون، والجامع في «الأصل كنيسة نسطورية قديمة، وفي الحقيقة كان كاتدرائية للنساطرة عندما كان مركزهم الموصل، وشاغل الضريح ليس النبي يونس(ع) بل البطريرك النسطوري يوحنا الأعرج»، وقد علّق ويكرام على هذا التحوّل، وقال إن سمعة البطريرك البارزة كانت سبباً «في تحويله بعد الممات إلى نبيّ يقدسه اليهود والنصارى والمسلمون»[٣].

● **عرض المحتويات:**

ـ المقدمة:

جذبت الموصل لموقعها الجغرافي ومركزها التجاري ومكانتها الثقافية الكثير من الرحالة العرب والأجانب ابتداءً من زينفون الذي وصلها في تشرين الأول سنة (٤٠٩هــ) . ومروراً بأبن جبير الذي زارها سنة ٥٨٠ هــ - ١١٨٤م. وابن بطوطة. وفي العصور الوسطى قصدها قسم من الرحالة الأجانب بدءاً من بنيامين التطيلي الذي قدم إليها عام (١١٧٣م)، وماركو بولو عام (١٢٧٢م)، وريكالدو بنيني عام (١٢٩٠م).

حاول المؤلف أن يدرس أحوال مدينة الموصل خلال فترة الاحتلال العثماني (١٥٣٤-١٩١٨م). وقد زارها عشرات الرحالة بدءاً من راوولف الهولندي الذي قصدها عام (١٥٥٦م) وانتهاءً بالميجر سون الذي زارها سنة (١٩٠٩م)والمسّ بيل والليدي درور، فتركوا لنا في مذكراتهم ومشاهداتهم الكثير من الانطباعات العامة والشخصية تخبرنا عن أحوال الموصل ورقيها. لذا أرتأى المؤلف في دراسته هذه أن يقتصر على هذه الفترة فبين من خلال هذه المدونات في المذكرات أحوال المدينة الإدارية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية خلال هذه الحقبة من تاريخ الموصل العريق.

وهو إذ يورد هذا في دراسته هذه. إنما يوثق ما وصل إلينا من المذكرات المترجمة. أو غير المترجمة، والتي تمكن من دراستها، وقد فاتنا الكثير من مذكرات الرحالة التي لم نحظَ بها، ولكانت تسد فراغاً كبيراً في الدراسة.

واخيراً أهمل المؤلف كثيراً من القضايا التي اعتبرها من باب الإطالة والإسهاب كالكلام عن الفتن والاضطرابات الداخلية، أو الحوادث الأرضية والطبيعية، (أو وصف الجوامع والمساجد والكنائس وغيرها) واقتصر مع التركيز المكثف على النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية.

اولاً : نظام الحكم والإدارة

قسم العثمانيون العراق إلى ثلاث ولايات هي الموصل وبغداد والبصرة ، وعلى راس كل ولاية من هذه الولايات والٍ يجري تعيينه وعزله من قبل السلطان. فيقول الاب دومنيك لانزا الذي أقام في المدينة للمدة (٣١/١٢/١٧٥٤-٢٢/ ٣/ ١٧٦١م؛ ثم ٢٥/ ٣/ ١٧٦٤



-٢٣/٥/١٧٧٠م): «... إن الباب العالي هو الذي يرسل أو يعين باشا الموصل، ولكنه كثيراً ما كان يضطر حذراً من إغاظة باشا بغداد إلى عزل أو نصب من يطلب هذا الباشا إقصاءه أو توليته».
كان الوالي يعتبر بمثابة نائب السلطان لأنه كان يتمتع بسلطة مطلقة فله قيادة القوات المسلحة وله فرض الضرائب وله تطبيق الأنظمة والقوانين وإقامة العدالة. وعلى عاتقه تقع إشاعة النظام واستتباب الأمن. وعلى كاهله يرتكز عبء تنفيذ الأشغال العامة وإدارة الأعمال الحكومية. ويرتبط بسلطته مرؤوسوه هكذا نرى بهذا التعداد للمهمات أهمية سلطاته وخطورة الدور الذي اسند إليه القيام به رغم أن ولايته كانت صغيرة الرقعة.
يقول الرحالة اوليفييه (١٧٩١م): «مساحة هذه الباشوية قليلة جداً، لا تمتد في الجزيرة إلى ابعد من اسكي موصلي وكسيك كوبري، لكنها تمتد في الجنوب إلى تكريت، وفي شرقي دجلة إلى الزاب الكبير والى جبال كردستان الأولى...».
ويؤكد لنا ذلك الرحالة نيبور (١٧٦٦م) ايضاً بقوله: «إن ولاية الموصل صغيرة تمتد على جانب دجلة الشرقي بمسيرة تسع ساعات جنوباً حتى نهر الزاب الكبير، وبمسيرة ثماني ساعات باتجاه الشمال، وهذه المنطقة محتشدة بالسكان. أما الجانب الغربي من نهر دجلة فانه خالٍ من السكان ويكاد هذا القسم من ولاية الموصل يعد متمماً للبادية... ويقدر عدد القرى الواقعة في ولاية الموصل بنحو ثلاثمائة قرية...»
وإذا ما كان الوالي شهماً غيوراً متوقد الحماسة شاعراً بمسؤولياته بارعاً في تصريف الشؤون كان لإقليمه أن يعيش في سلام ووئام واطمئنان، وإذا كان على العكس من ذلك شخصاً جشعاً طماعاً متعصباً أو بالأحرى إذا كان خائر العزيمة متردداً متحرجاً ضعيفاً، فإن السكان حينئذ يقعون تحت نير التصرفات الكيفية والأعمال التعسفية.
يقول الرحالة دبليو اي ويكرام (١٨٩٨م) في معرض ما أسلفنا به: «إن الوالي الذي يحكم مدينة الفساد والفوضى هذه، ربما يكون انساناً طيباً تؤهله طيبته ونزاهته لعمل لا يفلح في إحداث أي تبديل حقيقي، فيثبط همة أقوى الأشخاص وتقتل فيه بقية من الحماسة والوهم...».
ولسوء الحظ كان الولاة الأخيار من الكائنات النادرة، فقد كان العراق في هذه الحقبة يتمتع بسمعة سيئة لا يحسد عليها لدى الباب العالي في الاستانة فهو في نظره منطقة نائية فقيرة موبوءة وهو مسرح للقلاقل والاضطرابات المتواصلة. وهذا ما حدث في أواخر الدولة العثمانية بالنسبة لولاية الموصل، ولكن برزت هناك فترة ذهبية يتكلم عنها الرحالة بكل إسهاب إلا وهي فترة حكم الأسرة الجليلية[٤] التي استمرت للمدة (١٧٢٦- ١٨٣٤م).
فأوليفييه مثلاً يقول: «....ليست الموصل مدينة بكل هذه النعم لحكمة الباشا وحدها، بل هي مدينة للثقة التي نالها هذا الباشا بتأييده كل سنة وبأن له رجلاً من اقرب أقربائه سيخلفه منذ أتت أسرة عبد الجليل كثيرة العدد والثراء والموصلية الأصل إلى حكم هذه الولاية، رأى المولى الأعظم مضطراً نوعاً ما إلى قبول مطالب الشعب كل سنة والى إرسال فرمان التأييد وكيف يرفض هذا الطلب حينما تنصب الضرائب بانتظام في خزانة الدولة

وأوامر الباب العالي تنفذ بسرعة، وكيف يمتنع عند وفاة الباشا من نصب خلفه الذي أجمعت الأعيان على الإشارة إليه، عندما يكون المرشح أيضاً عند الوسائط التي تروج التماسه أكثر من غيره ...».

ولما كانت الحال على هذه الشاكلة فإن هؤلاء الولاة كانوا يجدون أنفسهم مرغمين على الفوز برضا ولي نعمتهم وسيدهم السلطان عن طريق شراء الحظوة في أعين حاشيته بأفدح الإثمان. وكانوا يلجأون إلى نفس الأساليب إذا شكا محكوموهم من مظالمهم بتوجيه استغاثات إلى الباب العالي طالبين عزل المتغطرسين الغاشمين عن مناصبهم.

فيقول اوليفييه في مذكراته عن هذا الوضع: «..لما كان الباشا قادراً على حفظ سلطته بنفوذه ونفوذ أسرته لم يكن يحتاج إلى حراس عديدين، وبما انه قد اشترى باشويته بأمواله الخاصة وبما انه واثق من استيفاء ما كان قد أعطاه شيئاً فشيئاً لم يلجأ إلى إرهاق الشعب بالضرائب كما يفعل أمثاله الذين استقرضوا بفوائد عظيمة وهم مضطرون إلى تسديد الدين».

وعلاوة على ذلك فقد كان على الوالي قبل أن يباشر وظيفته أن يتعهد بدفع مبلغ معين لخزينة السلطان في كل يوم، ذلك المبلغ الذي كان يمثل ضرائب ولايته. فإذا أخل بتنفيذه شروط هذا العقد فانه يظل مواجهاً خطر العزل والتسكع مذموماً مدحوراً. ولكنه من الجهة الأخرى إذا تعجل في تنفيذ بنود العقد أكثر مما يجب فإن المقامات العليا لدى الباب العالي لا تتردد في لفت نظره وقرص أذنه إلى أن خزينته كما هو ظاهر، تنعم في بحبوحة وسراوة حال فتفرض عليه هذه المقامات مبالغ إضافية جديدة يجب أن يؤديها لهذا الباب وهكذا يرتفع رقم الابتزاز.

فكانت البراعة الفائقة إذن في أن يتريث الوالي في تسديد المبالغ المفروضة عليه ما وسعته إمكانيات التريث. وان يشتري في الوقت نفسه ضمائر وذمم أفراد حاشية السلطان. وكان هذا كله يكلف ثمناً فاحشاً ولما كان الموظفون لا يتقاضون رواتبهم في أوقاتهم المعينة وبصورة منتظمة فإن كل واحد من هؤلاء كان يبذل كل ما في وسعه من جهود لابتزاز اكبر المبالغ الممكنة من دافعي الضرائب وممن شملتهم الجباية. وفي عين الوقت إرسال اقل مبلغ ممكن من النقود إلى خزانة الولاية.

وبعد انتهاء فترة الحكم الجليلي، تلك الفترة الشعبية التي تمتعت بها أسرة الجليليين في حكم الموصل إذ كان من مصلحة أهالي المدينة أن يكون واحداً منهم هو الوالي بخلاف الباشا الأجنبي المكروه من قبلهم.

هكذا كان الولاة الأتراك همهم السلب والنهب والاغتصاب بأي ثمن من الأثمان لا تهمهم مصلحة رعاياهم بشيء إلا هم بطونهم وجيوبهم فتفاقمت الأمور وازدادت الفتن والاضطرابات فاختل حبل الأمن وازدادت الشكاوى مما حمل الباب العالي أن يرسل بين الحين والآخر مفتشاً له صلاحيات واسعة على عدة ولايات ومهمته مراقبة الموظفين ومن ضمنهم الولاة ووضع حد لسوء تصرفاتهم.

وكدليل واحد لقولنا هذا نورد الحالة عام (١٨٩٢م) لدى تعيين من يدعي عمر باشا والياً على أقاليم الموصل وبغداد والبصرة الثلاثة إذ اظهر بادئ بدء القنصل الفرنسي سيوفي (١٨٢٩-١٩٠١م) بعض التشاؤم يوم علم بالخبر فيكتب لنا يقول:-

«... إن هـذه المهمة صعبة شـاقة بقدر ما هي مؤلمة، نظراً لان المظالم والتعسفات قد بلغت من الكثرة والتفاقم منذ أعوام في كافة فروع الإدارة المدنية منها والعسكرية بحيث إننا لم نجد له أي فرع من الفروع ناجياً من الإصابة ببلاياها...».
ولكن يعود القنصل سيوفي وقد تملكته الدهشة لدى رؤيتـه تصرفات عمر باشـا فيفضي إلينا بعجبـه قائـلاً: «... والآن قد أبصرتـه منهمكاً في أعمالـه أسـتطيع أن أدلي بشـهادة ناضجة منصفـة عنه فأقول إن به مزاياه كما له عيونه. ولكن قلما توجد مزاياه لـدى الموظفين الأتراك فهـو مثال على الاسـتقامة. وان عدالته في اغلب أعماله تساوي صلابته ونشاطه».

بعد كل هذا الشرح المسـهب عـن الوالي الحاكم المطلق في ولايته لابد من التطرق إلى أن الوالي لم يكن وحده يقوم بإدارة شؤون الولاية إنما كان يساعده «المتسلم» وهو نائبه واقرب الناس إليه وولي عهده، يقوم بتسليم مهام إدارة الولاية عند مغادرة واليها لأي سـبب من الأسباب، وتعيينه بهذا المنصب يأتي من الوالي نفسه دون الرجوع إلى سلطة أعلى.

ولما كان «المتسلم» عادة ولي عهد الوالي ونائبه، فقد كان يحظى لديه- في حال حضوره أيضاً- بأهمية خاصة وقد يدعى حينذاك بقائمقامه.

وكذلـك كان يسـاعده «الكتخـدا» الـذي كان بمثابة الوزيـر للوالي ومعاونـه ومدير مكتبه الخاص لمختلف الشـؤون الإدارية والعسكرية والمالية.

عـلاوة عـلى ذلـك كان للولاية جهـاز حكومي يتبـع الوالي مبـاشرة ويضم عـدداً من الكتاب والمترجمـين ويختـص بتحريـر كتـب الـوالي ورسـائله باللغات المتداولة وكان يسـمى هذا الجهاز «ديوان الإنشاء».

كذلك الموظفـون الماليون وهم مسـؤولون عن جمع الضرائب وإرسالها إلى الاستانة عن طريق «الدفـتردار» ومـن المناصب المالية المشـهورة «الخزنـدار» وهو الأمين المـوكل بصندوق المال والإشراف على أمور شـتى منها حفظ سـندات ديوان الأصناف وتسجيل الفرمانات والضرائب وتثبيـت مقدار ما اسـتحصل منها وغيرها من الأمور المالية.

أما القوات المسـلحة فكانت تتكون من الجنود الإقطاعيين والجيش الثابت (الينكجرية) والجند الخاص أو المرتزقة، فالجنود الإقطاعيون وهم الفرسان الذين حازوا على إقطاعيات في أراضي الموصـل. وكان مـن واجبهم تقديم السـباهية والأتبـاع، وأن يحافـظ على مسـتوى تدريبهم العسـكري طالما كانت وراثتهم للإقطاع نفسه متوقفـة على مقدار ما يمكـن أن يقدمه للدولة في الحرب.

أما نيبور فيقـول: «... والى جانب هذه القوات فإن في الموصل مائة وخمسـين اسـباهياً ولهم امتيازاتهـم الخاصة من السـلطان، وأولادهم يكونون اسـباهية ايضاً. وبمـا إن هذه المدينة ليست ثغراً لذا فانه ليس فيها ثكنة (قشلاق) أي انـه ليس في الموصل مقر لفوج من الينكجرية. إلا أن في الموصـل عـدداً غـير قليـل من ضباط الينكجرية مهمتهم تجنيد المتطوعين من أهالي البلـدة إذا اقتضـت الحاجة وعندهـا يتمتعون بجميع الحقوق التي يتمتع بها الينكجرية...».

أما الجند الخاص فكانـت الدولة العثمانية قد أباحـت للوالي أن يدخـل إلى خدمته عـدداً من الأتباع من مختلف الأنواع وفقاً لإمكانياته وقد بلـغ مجموعهـم في أواخر القـرن الثامن عشر زهاء المائتي رجل كما أشار إلى ذلك اوليفييه.
ومـن هـؤلاء كان هنـاك مائـة رجـل بعنوان

«ايج اغاسي» وتعني بالعربية آغا الداخل المختص بشؤون السراي، وهم في خدمة الباشا نفسه.

ويصف لنا نيبور أكثر موظفي القصر، فمن راجع رحلته يلاحظ الكلام عن «الايج كيلارجي» وهو الموكل بحفظ المربيات وتحت أمرته اكثر من كيلارجي، و«الابريقدار» وهو الذي يجيء للباشا بالماء ليغتسل، و«حرم كهيه سي» وهو رئيس طباخي القصر وغيرهم.

كما يتحدث عن التفنكجية فيقول إن عددهم بالموصل يزيد عن الأربعمائة فرد يخضعون لرئيسهم خضوعاً تاماً بينهم عددمنالنصارى.

وفي حالة إعلان النفير العام يمكن للوالي ان يجمع عسكراً خاصاً يعرف «بالسردنكجتي» من المسلمين والنصارى على حد سواء على حد قول نيبور.

أما القاضي وهو ارفع منصب شرعي في الولاية ورأس النظام القضائي فيها. وقد وجد في الموصل منذ الفتح العثماني قاضيان يتبع كل منهما فقه المذهبين المعروفين الحنفي والشافعي.

والمفتي هو بالدرجة الثانية من الجهاز القضائي للولاية وكان للموصل ايضاً مفتيان أولهما حنفي على مذهب الدولة الرسمي والآخر شافعي ويقوم كل منهما بمساعدة قاضي مذهبه.

ونقيب الأشراف، ووظيفته العناية بأمور المنحدرين من سلالة الرسول(ص) وضبط أنسابهم وتدقيقها ولم يكن لهذه المؤسسة الشرعية أي دور مؤثر في الحياة السياسية والاجتماعية لولاية الموصل خلال هذا العهد.

ثانياً: الحياة الاجتماعية

١- إحصاء السكان:

يقول المؤلف ليس من السهل تقدير عدد سكان ولاية الموصل خلال الفترة التي ندرسها، فاغلب الظن إن هذا العدد لم يكن ثابتاً بأية حال، لكن من الممكن أن نفترض، إن زيادة كبيرة قد طرأت على سكان الموصل خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وقد أشاد الأب لانزا بضخامة عدد سكانها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر فقال: «... ولقد حدثني المسنون من أهل البلدة مراراً... إن أهاليها كانوا اقل عدداً من الآن بنحو الثلث... لجأ إليها عدد كبير من العرب والأكراد والأتراك ومن نصارى القرى المجاورة... فاجمعنا على إن عددهم يتجاوز الثلاثمائة الف نسمة، إلا انه لم يكن من الممكن إحصاؤهم بالضبط ..».

على إن هناك اسباباً قوية تدفعنا إلى الشك في صحة هذه الأرقام الكبيرة إذ أن جميع تقديرات أعداد السكان في القرن التالي (التاسع عشر) لم يكن تتجاوز نصف العدد الأخير. وكان الرحالة سيستيني قد ذكر في مذكراته سنة (١٧٨١م) ما نصه:» .. وعلى العكس من ذلك فإنني اعلم أن الموصل في عام (١٧٧٩م) كانت تعد (٤٠٠٠٠) من السكان...».

وعام (١٨١٧م) زار الرحالة وليم هود الموصل وتكلم عن سكانها فقال: «.. يقال إنها كانت تضم بين أسوارها (٢٠٠٠٠) منزل، وقد دمر منها الثلث، وليس مسكونٌ منها الآن إلا النصف الباقي. فإذا حسبنا السكان بنسبة ستة أشخاص أو سبعة لكل منزل مسكون يمكننا القول إن عدد سكانها



الحالي يربو على٤٠ الفاً أو ٤٥ الف نسمة».
أما جيمس بكنغهام (١٨١٦م) فيقول: «... يظن أهل الموصل أن عددهم يتجاوز مائة الف نسمة لكنني بعد إحصاء غير دقيق قمت به ومقارنته بأرقام مختلفة أجريتها اعتقد بأن عدد السكان اقل من نصف ذلك الرقم...».

ويستفاد مما أورده جرانت سنة (١٨٤٠م) أن سكان الموصل بلغ ٣٠٠٠٠ الف نسمة وهم حسب تقدير بادجر عام (١٨٤٩م) يتكونون من ٣٣٥٠ عائلة أي إن عددهم كان قريباً مما أورده جرانت.

إلا أن اوليفييه الذي زار الموصل عام (١٧٩١م) يقدر عدد سكان الموصل بـ (٦٣٠٠٠–٦٥٠٠٠) نسمة.

يقول يوم في مذكراته: «... ولم استطع أن أقف على عدد نفوس الموصل سنة (١٨٨٩م)، إن كل المحاولات الرامية إلى إحصاء النفوس تبوء بالفشل لان الشرقي يربط بينها وبين جباية الضرائب وهو لا يجيب على الأسئلة التي توجه إليه في هذا الصدد إلا على مقتضى مصلحته...».

وامضى مستر شامير يومين يتبصر في الأمر فتوصل إلى أن عدد السكان في الموصل في شباط ١٨٨٩م يبلغ ٦٣ الف نسمة؛ ويقول ساخو: إن السكان يقدرون بـ٤٢ الف نسمة، لكنه يعتقد أنهم أكثر من ذلك العدد.

أما مستر سون (١٩٠٩م) فيخبرنا عن الموصل: «... الموصل آهلة بالسكان، تبلغ عدتهم ٩٠ الف نسمة على تعداد أخير موثوق به».

٢- طوائف السكان:

تميزت الموصل، عبر حقب التاريخ، بتعداد العناصر البشرية التي سكنتها. وقد عاشت هذه العناصر ازماناً طويلة، متجاورة، مشتركة المصالح، وعانت من الظروف السياسية والحضارية اوضاعاً متشابهة.

ومن ناحية أخرى فقد ساعد نظام الملل العثماني الذي أباح لكل طائفة دينية أن تستقل بشؤونها الطائفية والاجتماعية فتكون لدينا مجتمع موحدا أصبحت من المتعذر دراسته على أساس قومي أو ديني.

يقول بكنغهام: «... يؤلف المسلمون القسم الرئيس من السكان في المدينة، وهم من نسب متساوية من العرب والأتراك والأكراد...»، إلا انه بالحقيقة ليس من المستطاع تحديد نسبة كل قومية إلى الأخرى. خاصة وان اغلب الأوربيين لم يكونوا ليميزوا بين هذه القوميات تمييزاً بيناً، ويرى بعض القناصل الفرنسيين المعاصرين إن أكثرية السكان هم من العرب سواء كانوا متحضرين أم بدواً، أما الأكراد فهم أقلية ذات شأن.

أما نيبور فيذكر في كتاب رحلته: «... وسكان الموصل المسلمون كلهم من السنة والقسم الأكبر منهم على المذهب الحنفي أما البقية فهم شوافع ولكل من المذهبين مفتي يتبع مفتي القسطنطينية...».

ولم تشهد الموصل خلافاً عقائدياً بين إتباع المذهبين الإسلاميين فيها أو بين المسلمين عموماً وأتباع الديانات الأخرى في المدينة. وقد لاحظ بعض الرحالة أن المشاكل الدينية لم يكن لها اثر على علاقات الطوائف الدينية ببعض لغلبة العصبية المحلية على الجميع وانصهارهم في بوتقة الحياة الاجتماعية المشتركة. ويؤكد بدج

(١٨٨٩م) ذلك بقوله: «... وكانت العربية هي اللغة الشائعة الذائعة...»

وقد لاحظ الميجر سون أن إفراد هذه الطوائف يفسرون تآلفهم مع بعضهم بأنهم على اختلاف أديانهم، عرب في الإحساس واللغة ويرتبطون برابطة السكنى بالمدينة فيقول: «... ومن بين جميع مدن سوريا وبلاد ما بين النهرين، يتمتع النصارى فيها بحرية وهم بمنجاة من الاضطهاد، وعلى الوجه الذي يتمتع بنو جلدتهم الذين اضطروا إلى السكن مع المسلمين، جنباً إلى جنب، إنهم يردون هذه المزية، والحال المستحبة إلى أن المسلمين والنصارى عرب في الإحساس واللغة، وفوق كل شيء هم مرتبطون برابطة التساكن في المدينة، وهي رابطة قوية في الغالب وملمح تراص في مدن الشرق المنعزلة...».

وقد كان تولي آل الجليلي مقاليد السلطة السياسية في الموصل، لأكثر من قرن من الزمن، بمثابة تجسيد حقيقي لهذه الروح المحلية الواضحة، فهم بتفهمهم الكامل لظروف الطوائف المختلطة وإتباعهم سياسة محايدة متوازنة إزاءها قد دعموا سلطتهم بحصولهم على ولاء المدينة بأسرها بدلاً من ولاء طائفة دينية معينة.

يقول نيبور: «... وحالة النصارى في الموصل أحسن بكثير من حالة النصارى في بقية بلدان الإمبراطورية العثمانية يعيشون سعداء وعلى وئام تام مع المسلمين، ولهم الحق في أن يلبسوا كما يلبس المسلمون وكثير منهم يعملون في خدمة الباشا حتى إن حرم كهياسي (أي رئيس طباخي الباشا) نصراني، كان أبوه يشغل هذه الوظيفة لمدة طويلة عند والد الباشا...» .

وفي حصار نادر شاه للموصل عام (١٧٤٣م) أظهر الموصليون مسلمين ومسيحيين مدى تعاونهم وصمودهم سوية بوجه العدو فيقول نيبور: «... وقد كان النصارى يسهمون في هذه العملية مساهمة كبيرة بحيث أنَّ المسلمين يعترفون للنصارى بالفضل لثبات المدينة بوجه العدو كما أظهروا في مواقف مختلفة شجاعة فائقة...».

يقول نيبور: «... وللنصارى في الموصل نحو من كنائس عشر، ولكن معظمها صغيرة جداً، وقد سمح لهم الباشا ببناء عدد جديد آخر وترميم القسم الباقي وتجديده، ذلك لأنهم اشتركوا في الدفاع ببسالة عن الموصل أثناء حصارها الأخير عام (١٧٤٣م) وقد بنى النساطرة لهم كنيسة جديدة وكذلك فعل اليعاقبة وهاتان الكنيستان جميلتان وخاصة كنيسة النساطرة التي ليس لها مثيل في جميع بلدان الشرق...».

٣- المرأة الموصلية:

المرأة الموصلية كانت تساعد الرجل في سعيه الدائب نحو توفير أسباب المعيشة لأسرتهما، وإذ ليس بين أيدينا شهادات وافية وكافية من الرحالة عن أحوال المرأة إلا بعض النتف التي وان لا تفي بالغرض إنما نكتفي بإيرادها هنا مع الرجوع إلى بعض المصادر الأخرى.

يقول وليم هود: «... إن السكان في هذه المدينة اقل تحفظاً من غيرها من المدن ولا تحتجب النساء بصراحة كما هو الشأن في بغداد».

وجاكسون(١٧٩٧م) يقول بذات الموضوع: «... والروح المحافظة هنا ليست بمثل الشدة التي تتميز بها المدن الشرقية ذلك لان النساء من جميع الأصناف لسن محجبات وهن أشبه بنساء البلدان الأوربية...».

مـن هاتـين الملاحظتين نفهـم إن حياة نسـاء الأسر الارسـتقراطية في المدينـة تختلـف عـن حياة غيرهن من عامة نساء الشعب، كما نفهم انه كان للنسـاء بعض من الحقـوق المشروعة فبرز منهن من أنشـأ المـدارس كرابعة خاتون بنت إسـماعيل باشـا الجليلي إذ أنشأت جامعاً ومدرسـة لتحفيظ القرآن نُسبا إليها. وشيدت عائشـة خاتون أم محمود باشا الجليلي جامعاً وأوقفت عليه الأوقاف وقامت فتحية وعائشـة خاتون الجليلتان ببناء مسـجد ومدرسة ايضاً عام (١٧٨٠م) وغيرهن كثيرات.

٤- الازيــاء:

يقـول جمس بكنغهـام: «... ويلبـس الصغار مـن الأولاد غالباً قرطاً ذهبياً في إحدى الأذنين ، بينما تلبس الفتيات حلية أشبه بالزر مرصعة بأحجـار صغيرة من الفـيروز معلقة بثقب في الأنف ويرتدي الرجـال اللباس التركي ما خلا العمائم والطرابيش العالية مثل أعالي سـوريا بدلاً من القاووق التركي، والسراويل المصنوعة من نسـيج صـوفي جميـل عوضاً عـن الثياب القطنية...». أما عن ملابس النساء فيقول: «... وتلبس النساء رداء واقياً ازرق اللون أشبه بما هو مألوف في مصر وسوريا ويستعملن حجاباً من نسيج شـعر الخيل الأسـود يغطي الوجه كلـه وبذلك يظهـرن بمظهر لا يثـير الاهتمام غالباً...».

أما بادجر (١٨٤٩م) فيصف لنا أزياء الموصل على الوجه التـالي: «... يختلف لباس الذكور في الموصل قليلاً عن سـائر مـدن الشرق، وللإناث نوع خاص من غطـاء يتكون من برنس مربع محشـو في قمتـه وسـادة مسـتديرة سـمكها انجـان تحتهـا صحيفـة مذهبـة توضع على الرأس والرقبة مع عدة أوشـحة فتشـكل نوعاً مـن العمامة وهي للنسـاء الشـابات مرصعة بالجواهـر وسـائر الأحجـار الكريمـة ولهـن عصائـب ذات زوايـا ذهبية وقلائـد مصنوعة ببراعة وأقراط وخلاخل وأساور».

ثالثاً: الحياة الثقافية

اشـتهرت الموصـل منذ القديـم بأنهـا مدينة العلـوم والفنـون والآداب وخاصـة في العلوم الرياضية والفلكية فقد فاقت غيرها من البلدان العربيـة، فـكان الطلاب والعلمـاء يقصدونها من جميع الأطراف لغاية الدرس والارتشـاف مـن ينابيعها العلميـة الزاهـرة إذ كانت تعج مدارسـها بالعلماء والأطباء والفلكيين والأدباء المشـهورين. وقد شـهدت الموصـل منذ مطلع القـرن الثامن عشر بوادر حركـة ثقافية ذات طابع أدبي وكان لظهور الجليليين على المسرح السياسي بداية حقيقية لعهد الرعاية الرسمية للنشاط الثقافي العربي بعد أن ظل هذا النشاط محصـوراً في أطـار ما يدرس في المسـاجد من تجويد القرآن وتلقين الحديث.

وقد ارتبطـت الثقافـة بالمسـتوى الاجتماعي غالبـاً، فكانـت اغلـب الأسر التي سـاهمت في الحركة الثقافية تنتمي إلى أصول ارستقراطية شـهيرة مثل آل العمـري، وآل الفخـري، وآل الغلامـي، وآل ياسـين أفنـدي المفتـي، كمـا شـجعت المنح الكثيرة والرعايـة الخاصة التي كان يقدمهـا الجليليـين عـدداً مـن المثقفـين الموصليين على ممارسة الكتابة والتأليف فأدى ذلـك بطبيعة الحـال إلى نمو الحركـة العلمية نمواً ملحوظاً.

ففـي العلـوم القرآنية برز أمـين العمري (ت ١٧٨٨م) فكتب كتابين هامين أولهما: «تيجان التبيان في مشـكلات القـرآن» والآخر: «حدائق الزهر والريحان في البيان عن بلاغات القرآن».

وحسن باشا ابن الحاج حسين باشا الجليلي عام (١٧٨٣م) قبل توليه الحكم ونهج فيه على أسلوب المعجم المعروف (بترتيب زيبا) وسماه باسمه (ترتيب حسن).
وفي الفقه اشتهر الشيخ عبد الله الربتكي (ت ١٧٤٦م) ومصطفى أفندي الضرير (ت ١٧٧٤م).
أما في حقل التأليف اللغوي فقد شهدت الموصل في هذا العهد، عهداً من المؤلفين المتخصصين، وكان أبرزهم الشيخ خليل بن علي البصيري (ت ١٧٦٢) فنظم أرجوزة في أحوال حروف الجر زاد عدد أبياتها على الثلاثمائة بيت. ونظم صالح أفندي السعدي منظومة في النحو وأخرى في الصرف ثم شرح الأخيرة.
ونشطت حركة التدوين التاريخي- في هذه الفترة- نشاطاً سريعاً شاملاً، فظهر في هذا الحقل من المعرفة عدد كبير من المؤرخين المثقفين اشهرهم أمين العمري مؤلف كتاب «منهل الأولياء»وياسين العمري مؤلف كتاب «منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء» وغيرهما من المؤرخين.
وشارك الشعراء في هذه الحركة فقد نظم كثير منهم القصائد وأراجيز طويلة في وصف بعض الحوادث الهامة في عهدهم، وفي خزائن الكتب الموصلية عدد كبير من تلك القصائد والأراجيز لعل من أهمها ما سجل حوادث حصار نادر شاه للموصل عام (١٧٤٣م) مثل أرجوزتي السيد خليل البصيري، وأرجوزة حسن عبد الباقي وأرجوزة السيد عبد الله الفخري وأرجوزة يونس الموصلي وغيرهم.
على إن اهتمام الموصليين في هذا العهد لم يقتصر على التأليف في العلوم الأدبية بل تعداها إلى علوم طبيعية بحتة أهمها الطب والفلك والرياضيات. ففي الطب اتجه الموصليون إلى الترجمة عن المؤلفات اليونانية «الأوروبية» مباشرة، فترجم محمد الجلبي المتوفى عام (١٨٤٦م) كتباً قيمة من اللغة اللاتينية منها «الطب الجديد» لبراكلسوس و «صناعة الطب الكيمائي» تاليف فروليوس. كما ألف الكتب العديدة في الطب منها كتابه الكبير: (الطب الكبير)و(مفردات الطب الكبير) وغيرهما.
ولفتت الظواهر الفلكية والطبيعية انتباه بعض المثقفين، فكتب محمد العبدلي كتاباً في الاسطرلاب اسماه «تذكرة أولي الألباب في استيفاء العمل والاسطرلاب»؛ ثم كتب رسالته في «الثلج والجمد والبرد» وألف الأديب عبد الله الفخري (ت ١٧٨٤م) مجموعة من الكتب في علم الفلك منها كتابه «تسريح الإدراك في شرح تشريح الأفلاك» وكتاب «سوانح القريحة في شرح الصحيفة». وفي علم الحساب ألف أمين العمري رسالة سماها»ذريعة الطلاب الى معرفة الحساب» كما ألف رسالة أخرى في نفس الموضوع.
يقول الرحالة أبو طالب خان(١٨٠٣م) كشهادة عن منزلة الموصل الثقافية في مذكراته: «... وجميع موظفي الدولة واعيان السكان لما رأوا العناية والرعاية اللتين لقيتهما من محمد باشا هرعوا إلي يقدمون لي احترامهم، وكان هؤلاء اناساً مثقفين خاصة وذوي أخلاق محبوبة وتفكير واسع. ومنذ مغادرتي باريس لم الق رجالاً ذوي أذهان نيرة مثلهم، ووزراء السلطان لو كانوا يملكون عُشر براعتهم فقط ما خشيت على ما يستقبله الباب العالي من مقادير ...».
غير انه في عام (١٨٨٢م)، قنصل آخر يكتب لنا وصفاً موجزاً عن الثقافة بالموصل فيقول: «...

في عام (١٨٨٢م) كان للرهبان الفرنسيين عدة منشآت في الموصل، فهناك مدرسة الاكليريكية للاكليروس الكلدان ويبلغ عدد طلابها ٢٩ طالباً. وهناك مدرسة للطلاب البرانيين ويبلغ عدد طلابها١٤٠ طالباً،١١٠ منهم من الطلاب الكاثوليك و٧ من الطلاب المسلمين. وهناك دار للعجزة ومطبعة عربية...».

ويضيف إلى قوله: «أما بالنسبة للبنات فهناك الأخوات راهبات التقدمة اللواتي كن يقمن بإدارة مدرسة داخلية لرعاية البنات اليتيمات وعددهن ١٢ طالبة. كما كن يدرن مدرسة برانية يبلغ طلابها ٢٣٤ طالباً ١٨١ منهم من الكاثوليك و ٣٠ منهم من المسلمين...»».

وقد اهتم الجليليون بهذه الناحية بشكل خاص فأولوها عنايتهم ورعايتهم. حتى زاد عدد المدارس التي شيدتها الأسرة الجليلية وحدها على مجموع عدد المدارس التي أنشأها محبو العلم في الموصل طيلة فترة حكمهم، وكان اهتمام الجليليين بهذا المرفق الحضاري سابقاً لتوليهم السلطة ذاتها. ففي عام (١٧٠٢م): «شيد خليل آغا بن عبد الجليل مدرسة في فناء جامع الاغوات، وكان قد تعاون هو وإخوته إبراهيم آغا وإسماعيل آغا على إنشائه في نفس العام. وفي عام (١٧١٦م) بنى إسماعيل آغا (باشا) ابن عبد الجليل مدرسة في فناء جامع النبي جرجيس لتدريس القراءات والعلوم القرآنية».

وهكذا راح الجليليون رجالاً ونساءً ينشئون المدارس لتدريس العلوم الدينية والفقهية. فأنشأت رابعة خاتون عام (١٧٦٦م) داراً لتدريس القرآن وأنشأت فردوس خاتون مدرسة عام (١٨١٦م) وسميت المدرسة الحسنية. وعام (١٨٢٥م) شهد بناء أربع مؤسسات ثقافية كبيرة شاء القدر أن تكون آخر ما بناه الجليليون في مدينتهم حتى انتهاء حكمهم، واهم تلك المنشآت المدرسة التي بناها يحيى باشا ودار القرآن التي ألحقها بها وتضم زهاء٤٠٠ مجلد من نفائس المخطوطات.

وساهمت اسر موصلية أخرى في حركة تشييد المدارس ووقف الكتب ففي عام(١٧٨٦م) انشأ الحاج زكريا التاجر مدرسة وأوقف عليها مائتي مجلد من الكتب. وفي نفس العام قام احمد أفندي ابن بكر ببناء مدرسة والحق بها مكتبة حافلة وغيرهما من المدارس مثل مدرسة جامع التوكندي، ومدرسة الخزندار وغيرها.

أما مناهج الدراسة في هذه المدارس فكانت تقوم على أساس ما عرف بالعلوم النقلية والعقلية وتشمل الأولى علوم القراءات والتفسير والحديث وأصول الفقه والعقائد والكلام واللغة والنحو والبيان، في حين تشمل الأخرى: علوم المنطق والحكمة والفلك والازياج والهندسة والحساب والطب والموسيقى.

وجنباً إلى جنب مع الثقافة الإسلامية كانت هناك الثقافة المسيحية تجد لها من الكنائس والأديرة الكثيرة داخل الموصل وفي أطرافها خير مرتكز لنشاطها المتزايد، وكان المدرسون غالباً من الرهبان والقسس والشمامسة الذين كانوا على درجة جيدة من الثقافة بحكم دراستهم الطويلة ومعرفتهم بأكثر من لغة. وقد رأينا في ما سبق من كلامنا إقبال المسيحيين إلى المدارس وعددهم الكبير بالنسبة للطوائف الأخرى.

وكان لجهود البعثات التبشيرية الفرنسية في نشر الكثلكة في الشرق أثرها في إحداث مد ثقافي بين نصارى المنطقة. وكانت أهم تلك البعثات إرسالية الآباء الدومنيكان التي جاءت الموصل عام (١٧٥٠ م)، فقد استطاعت هذه الجماعة

أن تجد لها في الموصل مستقراً ثابتاً يتمتع- في الغالب- بعطف الولاة وكبار موظفي الولاية بما كانوا يقدمونه من خدمات طبية. وكان أول عمل لهؤلاء المبشرين هو فتح مدرسة في المدينة لتدريس العلوم واللغة الفرنسية كان لها دور هام في تخريج طبقة مثقفة من رجال الدين المسيحيين.

ولم يجد بعض المسيحيين الطموحين حرجاً من الدراسة في المدارس الإسلامية وخاصة أولئك الذين لم يجدوا في التعليم الكنسي ما ينشدونه من معرفة متنوعة. وقد ذكر احد النصارى المعاصرين: «... إن النصارى في كل الشرق ما كان لهم مدرسة بالعربي لتعليم ذلك اللسان...» وأشار إلى أن دراسته لعلوم المنطق و«الايساغوجي» كانت في مدارس المسلمين.

رابعاً: الحياة الاقتصادية.

(١)الزراعة:

اشتهرت الموصل منذ القديم بالزراعة، فهي تقع وسط منطقة زراعية واسعة شديدة الخصوبة، تمتد ما بين دجلة والزاب الأعلى، وبين هذا النهر والزاب الأسفل، وتضم سهل الموصل الممتد على طرفي نهر دجلة، بين جبل الشيخان وجبل سنجار والمنطقة المحصورة بين الزابين، وهي تعتمد في زراعتها على الأمطار وتزرع اغلب الغلال على مدار السنة لذا فقد اشتهرت الموصل بثرواتها الزراعية.

يقول الأب لانزا: «... وهي أراضي خصبة جداً تفوق التصور، لذلك فغلتها تكفي لا بل تفيض عن حاجة الولاية وربما تكفي لسدّ حاجة الولايات المجاورة لكن بين آن وآخر تغزوها أسراب الجراد بكثرة ولا تترك معها شيئاً من الحنطة وتلتهمها كلها إذا كانت طرية، أما إذا كانت بالغة أوانها فالضرر اللاحق يكون اخف وقعاً...».

ويضيف إلى قوله: «... إنَّ المواد الغذائية الضرورية في هذه الولاية ارخص قيمة من سائر الولايات عادة وخاصة الخبز والعنب والخوخ والقطن وما أشبه. وهي زهيدة الثمن نظراً إلى الكميات الكثيرة التي ترد إليها من كردستان. أما بقية الأثمار فهي قليلة لأنها ترد إليها من أماكن بعيدة بكميات محدودة هذا ما عدا الشمزي والبطيخ وغيرها من ثمار الارض التي تتوفر في البلاد ...».

ويؤكد فنشنسو(١٦٥٦م) كلام لانزا في حديثه عن المواد الغذائية فيقول: «... لقد استمتعنا كثيراً بأكل البطيخ وخاصة الرقي ولم أشاهد في حياتي نظير الرقي الموصلي فهو كبير الحجم جداً يبلغ قطر بعضه أكثر من ذراع...».

كما لفت أنتاج الموصل الغزير للحبوب انتباه كثير من الرحالة الذين زاروا الموصل، فقد لاحظ بادجر ان أنتاج الولاية الاساس هو الحنطة والشعير، وان إنتاجها على أيامه (أي منتصف القرن التاسع عشر) كان بكميات وفيرة جداً فيقول: «... والإنتاج الزراعي الرئيس هو الحنطة والشعير المتوافران بكثرة إلا أنهما لا يكادان يفيان نفقة حراثتهما، فكل ١٠٠ مثقال حنطة يباع اليوم بـ ٨ فلوس، والشعير بـ ٥ فلوس...».

وكان تصدير الحبوب إلى المنطقة الجبلية المجاورة، والى العراق الجنوبي وبخاصة ولاية بغداد من الأمور الجارية على الدوام، حتى إن انقطاع الحصاد التام من الولاية المذكورة رغم مساحتها الواسعة على ما لاحظ المستر جروفز سنة (١٨٣١م)- لا تترتب عليه مصاعب كبيرة «لأنه كان بالإمكان ورود الحبوب بسهولة من الموصل ...».

والى جانب إنتاج الحبوب، كانت ولاية الموصل

تنتج القطن الذي يستخدم في صناعات النسيج الكثيرة التي اشتهرت بها المنطقة منذ عهود قديمة. وكان يزرع عادة في القرى التي تتوفر فيها مصادر دائمة للمياه، إلا أن إنتاجه لم يكن يكفي حاجة السوق المحلية، فكان التجار يستوردونه ايضاً من المناطق الجبلية المجاورة.كما كانت الموصل تنتج- خلال الصيف- انواعاً مختلفة من الخضروات والفاكهة كالبطيخ والخيار وغيرهما. ويزرع اغلبها على شواطئ دجلة والجزر التي تظهر في النهر عند انخفاض مستوى الماء فيه.

٢.الصناعة:

كان للاستقرار النسبي الذي شهدته ولاية الموصل منذ أواخر القرن السادس عشر أثره الواضح في إذكاء حركة صناعية ما انطفأت جذوتها قط؛ إذ لم تستطع الفوضى التي أعقبت الغزو المغولي أن تقضي على رواسب الصناعات المختلفة مما اشتهرت به المدينة خلال العصور العباسية وخاصة في العهد التركي، كصناعة الأنسجة بأنواعها: الحريرية والقطنية والصوفية وصناعة التحف المعدنية. على إن الاستقرار السياسي وحده ليس بكاف لإحراز تقدم صناعي سريع، ما لم يصاحبه نشاط تجاري يكفي لتبادل الخبرة الفنية بين مراكز الصناعات ويتيح الفرصة لإيجاد أسواق كافية لتصدير المنتجات بما يخلق نوعاً من الاقتصاد المركب.

ولما كانت صناعة الأنسجة تعد من أهم الصناعات الموصلية وأكثرها حيوية، بالنسبة للتبادل التجاري، ويذكر لانزا إن نسيج القطن كان يمثل- على أيامه- مهنة عامة الناس فيقول: «... فيهتم الرجل بنسجه اشكالاً مختلفة، وآخرون بتقصيره، وغيرهم بصبغه أو رسمه بصور شتى وغيرهم بنقله وبيعه، وهكذا فالجميع تقريباً يشتغلون به...». ولاحظ الرحالة البريطاني جاكسون عام (١٧٩٧م) أن سكان الموصل أكثر اهتماماً بالصناعة من أي قوم آخرين رآهم منذ مغادرته الهند ويقول: «... هناك عدة مصانع يجري تشغيلها وبعض مصنوعاتها تتفوق على المصنوعات الأوربية فسروج الخيول وأحزمتها تظهر جداً أنيقة بوجه خاص، وهم يصنعون سجاد الحرير ويطرزونه بالأزهار فيظهر أحسن وامتن من السجاد الذي نصنعه نحن وهم مبرزون في صنع المطرزات الثمينة المدهشة للرجال والنساء معاً، ولديهم العديد من مصانع النحاس والحديد، وهناك كميات كبيرة من مختلف المواد التي تصنع من هذه المعادن يتم إرسالها عبر نهر دجلة نحو الجنوب حتى البصرة...».

وكان الرحالة نيبور الذي زار الموصل قبل مجيء جاكسون إليها قد أشار إلى وجود «... مصانع كثيرة للنسيج والحياكة والصباغة وصباغة النقوش على المنسوجات والمهنتان الأخيرتان بيد النصارى ...». كما أشاد اوليفييه في كتاب رحلته عام (١٧٩١) بإنتاج هذه المصانع، وذكر أنها منتشرة في المدينة، وان قيمة منسوجاتها كبيرة، حيث أنها تباع في حلب إلى التجار الفرنسيين فتشحن من هناك إلى مرسيليا. ونوه رحالة عديدون بالصناعة الموصلية مثل دوبريه (١٨٠٧-١٨٠٩م) وبكنغهام وبادجر.

فبكنغهام يقول: «الصناعة الوحيدة التي تمارس في الموصل على نطاق ما هي صنع الملابس القطنية التي تصبغ باللون الأزرق لاكساء الطبقات الفقيرة...».

وأمـا بادجـر فـصرح: «... أمـا مصنوعـات الموصـل في أيامنـا فهـي: الملابـس القطنية، والصابون الذي سوق في القرى المجاورة...».

٣- التجارة:

نال موقع الموصـل بين أربعة أقاليم جغرافية متمايزة، هـي إقليم الجزيـرة وإقليم العراق والمنطقـة الجبلية والبادية الصحراوية، دوراً اساسياً في نشاط الموصل الحضاري منذ أقدم عهودهـا. ولا ريـب في أن للتجـارة النصيـب الأوفى في ذلـك النشـاط بما تسـببه من تأثير متبادل بـين مختلف الحضـارات، وقد انتبه كثير مـن الجغرافيين إلى أهمية موقع الموصل عـلى تجارتها، فوصفـت قديمـاً بأنها محط الركبان ومنها يقصد إلى جميع البلدان، فهي باب العـراق ومفتاح خراسـان ومنها يقصد إلى أذربيجان.

ووصفت في القرن الثامن عشر بنفس الوصف تقريبـاً عـلى بعد شـقة الزمن، فيقـول الاب لانزا: «... أنها تسـتفيد من موقعها الجغرافي المتوسـط بين الجهـات، فتأتيهـا الأعراب من البادية، والأكراد من الجبـال ويبتاعون منها ما يحتاجونه، وللسـفر منهـا إلى إيران يكفي اجتياز الجبال وكذلك إلى بغداد يكون السـير منها سـهلاً بالبر، وأكثر سـهولة منه بالنهر، ومـن بغـداد فالبـصرة فالهنـد كمـا يفعـل كثير مـن التجار، والبضائـع التي تجيء بها القوافـل من إيران والهند إلى المملكة العثمانية تمر بالموصل، كما انه لا بد أن تمر بها البضائع التي تنتقـل من الأقطـار العليا الشـمالية إلى الأقطار السفلى الجنوبية...».

ومنـذ القرن الثامن عشر أخذت الموصل تجني فوائد موقعها السياسي الجديد فقد أصبحت- مـرة أخـرى- نقطـة وصل بين شـبكة طرق تجاريـة متعـددة الاطراف، وصـارت قوافلها تقوم بعملية تبـادل ضخمة بين منتجات بلاد متباعـدة مختلفة علاوة عـلى قيامها بتصدير ما تنتجه الموصـل من مواد زراعية، أو بضائع مصنوعـة أو خدمـات صناعيـة إلى الأسـواق المحلية المجاورة أو إلى المراكز التجارية الأخرى كحلـب وبغـداد، ليتـولى تجار هـذه المراكز- بدورهم- تصريفها في الأسواق الخارجية.

وجاء في تقرير فرنسي مخطوط لمترجم قنصلية فرنسـا في بغداد المسيو اشيل مراديان (ت عام ١٨٩٥م) انـه كان يرد إلى العراق من البضاعة الفرنسـية في أوائـل القـرن التاسـع عشر عن طريق الاسـتانة وحلـب ما تبلـغ قيمته ثلاثة ملايـين فرنك منها الجـوخ والمخمل والقيطان والبقـم (بتشـديد القاف) وهو خشـب احمر يستخدم في الصباغة.

يخبرنـا لانزا عن الحركة التجارية بقوله: «... توجـد في الموصـل أنواع البضائع المسـتوردة مـن إيـران والهنـد وكوبا والأقطـار الأخرى التابعة إلى الإمبراطورية، إلا أن تجارة الموصل الخاصة عـدا الحبوب هي الأقمشـة القطنية ويصدر منها كل سـنة مقدار كبير إلى سـائر الجهات».

ثم يتكلم عن التبـادل بين الموصليين والتجار الآخريـن خـارج الولايـة فيقـول: «... إن العفص وهو كثير في جبال كردسـتان يحمله الموصليون بمقادير كبيرة إلى حلب لبيعه على التجـار الأوربيين ولابتياع الاجواخ والأقمشـة والنيـل وغيرها من البضائع الأوربية بأثمانه، وتسـتورد كميات من النيل سـنوياً من حلب إلى الموصل مـا يربو ثمنه على الف الف قرش واعتقد انه يسـتهلك كله في هذه المدينة لصبغ المنسوجات بأشكال شتى...».

إذن كانت التجارة بالبضائع الأوربية كبيرة فقد قدرت كمية البضائع الأوربية المستوردة عن طريق حلب والشام إلى العراق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بأكثر من (٧٥٠٠ بالة) تشتمل على الأقمشة القطنية والأقمشة المطبوعة، واليازمات (لباس الرأس للنساء) وسائر المنسوجات القطنية والحريرية والورق (٢٢٠ بالة) من الورق الأبيض و (٣٠٠ بالة) من الورق الملون والكتب والكتان وحجر القدح والبنادق وسلفات النحاس والكبريت والمسامير والأسلاك الحديدية والزجاج والمرايا وفناجين القهوة واللآلئ الصناعية. هذا بالإضافة إلى كميات كبيرة أخرى من مصنوعات حلب والشام مثل غزل القطن والسكر المصفى والنحاس والمرجان وصابون حلب(٣٠٠ بالة) وصابون الشام (٢٠٠ بالة) إلى غير ذلك.

وفي الوقت نفسه، كانت الموصل تصدر إلى حلب نسيج الموسلين والأقمشة الحريرية المطرزة والمقصبة بخيوط الذهب والفضة، حيث كانت تباع هناك إلى التجار الفرنسيين ليشحنوها إلى مرسيليا. وكميات أخرى كبيرة من (العفص) ليبيعه للتجار الأوربيين، هذا فضلاً عن السمن والماشية والتمر والطنافس الفارسية والتنباك وغيرها.

وترتبط الموصل بالإمارات الكردية المجاورة بعلاقات تجارية وثيقة فكانت تستورد منها العفص بكميات كبيرة والصوف والحرير والقمح والشعير والخشب والحطب والبسط والطنافس والأحزمة وقشر الرمان والصمغ والتبغ والزبيب والفواكه والرخام والجبس والأغنام والماعز وجلودها وصوفها وسمنها، وتصدر إليها البن والشاي والسكر والأقمشة الهندية والأوربية.

وينوه تافرنييه (١٦٤٤م) بالعلاقات التجارية بين الموصل والمناطق الكردية المجاورة فيقول: «... وليس لهذه البقعة من شأن إلا كونها ملتقى مهماً للتجار، خاصة تجار العرب والأكراد...». كما يشير نيبور إلى هذه العلاقات فيذكر أن ما يرد إلى الموصل سنوياً أكثر من الفي قنطار من البندق واللوز والجوز فتقوم هذه بتصديره إلى حلب.

وينوه المقيم البريطاني ريج (١٨٢٠-١٨٢١م) بما كانت تستورده الموصل من السليمانية على أيامه في سنة (١٨٢٠م) فيقول: «... والمتاجرة مع الموصل مستمرة بعض الاستمرار، وتستورد منها الأحذية والغتر والخام والأقمشة القطنية الملونة، ومنتوجات الشام وديار بكر وغير ذلك. أما الصادرات إليها فالعفص وغيره...».

وتعتبر بغداد مركز النقل الجنوبي للتجارة الموصلية، فهي تصدر إلى الموصل اغلب ما تنتجه محلياً، أو ما تستورده من الخليج العربي ومن إيران مثل التبغ الأصفهاني والفواكه والفضة والجواهر واللؤلؤ وشالات كشمير وكرمان والسكر والشاي والفلفل والبن والصابون والشمع والكبريت والعباءات والأحذية وملابس الأعراب والأدوية والفواكه المجففة والسجاد.

وتصدر الموصل بدورها إلى بغداد الحنطة والعفص والرصاص والزبيب والحمص والعدس ودهن السمسم والصابون والشحوم وشعر الماعز والنشوق ونبات الزعتر.

كما تصدر إليها ايضاً ما تصنعه أنوالها من ملابس قطنية وغيرها على ما اخبرنا دوبريه. ويشير جاكسون إلى أن تجارة هامة جديدة لم تكن معروفة من قبل ازدهرت بسرعة في الفترة التي سبقت رحلته سنة (١٧٩٧م)وهي تصدير النحاس بكميات ضخمة من الموصل إلى بغداد لتشحن من هناك إلى أوربا حيث انه: «... من نفس النوع الذي يجري صنعه في انكلترا...».

خامساً: الحالة العمرانية

١- مقدمة:

كان سقوط الموصل بأيدي المغول في القرن الثالث عشر بداية التدهور العمراني المستمر الذي حل بالمدينة. وفي القرون التالية أخذت المدينة تنكمش تدريجياً داخل أسوارها القديمة، وتضافرت النكبات الطبيعية والبشرية على تدهور المدينة، وانحطاطها وفي بداية العصر العثماني كان نصف البلدة تقريباً قد أصبح خرائب خالية من السكان.

يخبرنا راوولف الذي زار الموصل عام (١٥٩٦م) قائلاً: «... وعبرنا جسراً من القوارب، وهي تابعة للإمبراطورية العثمانية... شأنها شأن البلدان التي تجاورها... وفيها بنايات حسنة وشوارع، وهي على جانب من السعة لكن أسوارها وخنادقها واهنة الشأن ...».

اما تافرنييه الذي زار الموصل سنة (١٦٤٤م) فيقول : «... والموصل مدينة تبدو للمرء من خارجها فخمة المنظر أسوارها حجرية، بينما في داخلها تكاد تكون برمتها خربة، ليس فيها سوى سوقين معقودين، وقلعة صغيرة مطلقة على دجلة يقيم فيها الباشا ... وليس لهذه البقعة من شأن إلا كونها ملتقى مهماً للتجار، خاصة تجار العرب والكرد، وليس في الموصل غير خانين حقيرين، كانا مكتظين بالمسافرين حين وصولنا إليها، فطلبت أن تنصب خيمتي في الميدان أي في السوق الكبير ...».

أما فنشنسو الذي قدم الموصل عام (١٦٥٦م) فيحدثنا في مذكراته: «... فبيوتها بسيطة مشيدة بالطين، وهي أشبه ما تكون بيوت رعاة من أن تكون مساكن أناس متحضرين ومركز ولاية، وليس فيها ما يلفت النظر سوى قلعتها حيث يوجد عدد كبير من العسكر الانكشاري. ويحيط القلعة سور فيه مزاغل للدفاع ضد الهجمات على عادة الأقدمين... أما مواد البناء فهي الجص والحجر الرخو. وهذا النوع من البناء لا يقاوم عوادي الزمن ... ولهذا رأينا بعض أقسام القلعة مائلة للسقوط ومتهدمة ...».

هكذا كانت حالة الموصل في القرن السابع عشر، غير انه مع بداية القرن الثامن عشر شهدت بداية حركة عمرانية محدودة شملت تشييد بعض المؤسسات الدينية والثقافية وبعض المنشآت العامة، فجرت أول محاولة- بإيعاز الوالي ومساهمة سراة البلدة لبناء قناطر جسر المدينة العائم. وعمرت بعض المساجد القديمة. وانشأ بعض السراة عدة منشآت دينية وثقافية جديدة. وبلغت هذه الحركة العمرانية ذروتها عند استلام الجليليين السلطة فشيدوا عدداً ضخماً من المساجد الكبيرة والمدارس والأسواق والقصور وعمروا الأسوار والقلاع، وساهم كثير من أصحاب النفوذ والوجهاء في هذه الحركة فكثرت المؤسسات الدينية والثقافية خلال هذا العهد بسرعة كبيرة. واستمر الحال هكذا حتى أوائل القرن التاسع عشر حيث انتكست الموصل ثانية.

يقول جون آشر(١٨٦٤م) مؤكداً لكلامنا السابق: «... واسطة الاتصال بين جانبيها الجسر من القوارب البالي الضيق المزدحم بالعابرين ولا سيما قبل الظهر ... وكان فيها جسر حجري مناسب لكنه أهمل شأنه فتهدم ولم تبذل أية محاولة لإعادة بنائه من قبل الأتراك ...».

٢- الأسوار والحصون:

استقرت الموصل في القرن الثامن عشر بين أسوارها القديمة وكانت هذه الأسوار مبنية على أنقاض الأسوار الاتابكية، وكانت تحيط بالبلدة من كل جهاتها، تتخلله عدة أبواب ويزيد من مناعة هذا السور وجود قلعتين فيه، الأولى في اعلى المدينة تطل على دجلة والأخرى القلعة الداخلية التي تهدمت معظم مبانيها، وقد وصفها الرحالة هول عام (١٧٨٨م) وأشار إلى أن رداءة مواد بنائها جعلتها غير قادرة لان تكون حصناً قوياً.

يحدثنا تيفنو الذي زار الموصل عام (١٦٤٤م) عن السور والقلعة بقوله: «... يحيط بها سور مشيد بحجارة مثبتة بالجص. وتعلوه حجارة مدببة متجهة إلى الأعلى، يبلغ سمكها نحو أصبعين وعرضها أربع أصابع أو خمس فهي أشبه ما تكون بالأوتاد الخشبية». واوتر الذي قدم عام (١٧٣٦م) يقول: «... فيها سورين قديمين وكبيرين ويقوم اليوم احد الأسوار وكله حفر وأنقاض على شاطئ النهر ...».

ونيبور الذي زار الموصل عام (١٧٦٦م) فيقول: «... ويربط نينوى بالموصل جسر يطفو على عشرين عوامة فإذا سقط المطر بشدة أو ذاب الثلج فان مستوى ماء النهر يرتفع وتياره يشتد بحيث يقطع اتصال الجسر...».

ويضيف إلى قوله: «... والموصل كأية مدينة كبيرة في هذه البلاد فنحو نصفها الواقع على الطريق البري محاط بسور قديم قوي وضخم، ولا يزال قسم كبير من السور الواقع على ضفة النهر قائماً، وللقسم الجنوبي الشرقي من المدينة، سور متقطع له أبراج ولكنه غير قديم، وفي مواضع كثيرة منه تلتصق البيوت مع بعضها فتشكل قسماً من السور. والقسم الأكبر من المدينة مهدم تغطيه الأنقاض...». ويصف كذلك القلعة الداخلية بقوله: «وهذه القلعة على جزيرة صغيرة مستطيلة الشكل في نهر دجلة وتتخذ الآن مستودعاً للذخيرة والعتاد».

غير أن اوليفييه الذي زار الموصل عام (١٧٩١م) تكلم عن السور بقوله: «... سورها يشابه أسوار المدن التركية أو العربية. مرتفع وله بروج عديدة. محاط بخندق عميق نوعاً ما ... وكان السور يمتد قبلاً مع دجلة، لكن الآن لا يرى له إلا بقايا فلم يعمل على إدامته وإصلاحه...».

وسرعان ما أهمل أمر السور وتحصيناته، فامتلأ الخندق بالأتربة وتهدم السور، حتى غدا- كما رأى بكنغهام- حاجزاً لا أهمية له إمام جيش مزود بالمدفعية.

ويؤكد ويكرام هذا بقوله: «... ويحيط بها من سائر جهاتها سور وخندق... وربما كان السور الخالي مقاماً على سور أثري عتيق، إلا أن عمر السور القائم لا يزيد عن مائة عام. وقد أسرع إليه الخراب وتكسرت أجزاؤه لسوء بنائه وساعد في خرابه استخدام الحكومة والأهالي حجارة أنقاضه للبناء...».

ويعود بكنغهام ليقص لنا حالة القلعة الماثلة للخراب وكان قد رآها سنة (١٨١٦م) فيقول: «... وتتألف تحصينات المدينة التي تمتد خارجاً، من سور مغلق ليست فيه مدافع، أما من ناحية النهر فتقوم إحدى القلاع بالدفاع عن المدينة، وهذه القلعة صغيرة مخربة تقع على جزيرة اصطناعية نشأت عن امتداد نهر دجلة من الضفاف التي تقع عليها القلعة إلى الخندق العميق الذي يحيط بها وهي تقع على مقربة من جسر القوارب الذي يعبر به النهر. والبناية مثلثة الزوايا وقد شيدت على مقربة من القلعة بضعة مدافع من البرونز ألقيت هناك مهملة غير صالحة للاستعمال...».

٣- الدور والقصور:
قدر عدد بيوت الموصل في القرن الثامن عشر ما بين العشرين الف بيت والاربعة والعشرين الف بيت على حد تقدير نيبور. أما المنشي البغدادي (١٨٢١م) فقدر عدد البيوت في القرن التاسع عشر بثلاثين الف بيت أو أكثر. وتخترق الموصل في هذا العهد، شبكة من الأزقة والطرق. وقد وصفها اكثر من رحالة بأنها كانت: مستقيمة جافة في الصيف وموحلة في الشتاء، على حد قول دوبريه وسبستيني.
ويقول نيبور: «... وشوارع الموصل وأزقتها ضيقة وغير منتظمة... ولجميع الشوارع مداخل في نهاياتها. ومعظم هذه الشوارع والطرقات معبدة...». أما بكنغهام فيشير: «... فالشوارع ضيقة غير معبدة واستقامتها ليست منتظمة...».
ويرجع جون آشر فيخبرنا: «... أما الشوارع والأزقة فهي أنظف وأحسن مما توصف به من الخارج عادة، لأنها كانت على شيء من الاتساع ومبلطة احياناً من دون أن تكثر فيها الأوساخ...».
أما بدج فيقول: «... شوارع الموصل ضيقة وتبليطها رديء... والبيوت مبنية في الأحيان بالرخام الرمادي... ويستخدم في صنع الاسكفات وعمد الأبواب وتبليط افنية الدور...».
وتميزت دور البلدة في عهد الجليليين، بأنها كانت ذات طراز واحد تقريباً.
أما بكنغهام فيورد وصفه بما يلي: «... ونظراً لندرة الأخشاب... فإن معظم هذه الأبنية لها بدلاً من السقوف الخشبية، سقوف معقودة تقوم فوقها غرف وسطوح معقودة تسند شرفاتها المنبسطة، ومداخل هذه المنازل والشبابيك التي تنفتح على الباحات الداخلية، متوجه بطاق من المرمر المجزع... وهو مشيد على الطراز الغوطي المدبب، أو النورمائدي المستقيم، أو الأقواس العربية... وتحلى قطع المرمر في بعض الحالات برسوم أزهار منحوتة وهي متقنة الصنع غالباً... ومن بين الزخارف التي شاهدتها على أركان المداخل وسجفها التي تتكرر كثيراً أحد الأعمدة المحلاة بما يشبه رأس الكبش، ونقوش أخرى من مثلثين منطبقين على بعضهما بالتخالف ونجمة في الوسط».
والاب لانزا الذي سكن الموصل فترة طويلة يصف لنا بيوت المدينة وصفاً دقيقاً فيقول: «... دور المدينة جيدة وقوية، مبينة بالأحجار والطابوق والجص، وهي مريحة وكلها عن طراز واحد تقريباً وان هندستها المألوفة هي على الصورة التالية: كل دار لها في الوسط منطقة مفتوحة من جهة الفناء أشبه بغرفة، ومن الجهة الأخرى تقوم غرف في المنطقة السفلى جميلة البناء باعقادها وتتصل بها خزانة...».
ويردف بقوله: «... ولشدة الحر ينام الاهلون أربعة أو خمسة اشهر الصيف على السطوح آمنين المطر والندى، وللغاية عينها يوجد في كل من البيوت الواسعة غرفة تحت الأرض متقنة البناء (السرداب) لاتقاء حر الصيف...».
ويصف ويكرام بيوت الموصل بقوله: «... إن باحات المنازل من الداخل لطيفة المنظر واقل ما يقال عن طرز هندستها انه اثري الطابع فهو مطابق تماماً لما وجد في المنازل الآشورية ومدخل المنازل الموصلية مبني بشكل يحول دون رؤية ما بداخل المنزل بالنسبة إلى المارة في الشارع أو عند فتح الباب. وهو يفضي إلى صحن الدار الذي يحيط به رواق من طابقين مدعم بالأساطين المدورة من المرمر الأزرق

المحلى وصحن الدار مبلط بالمرمر. وغالباً ما تبلط واجهة الدار بالمواد نفسها. وثم (إيوان) في جانب من البناء يستخدم للقيلولة زمن الصيف وقناة الماء القذر (البالوعة) وتكون عادة في باحة الدار. وفي وسط الصحن قد توجد حديقة صغيرة. ويضم الغني إلى مشتملات بيته (سرداباً) وهو المقيل الصيفي تحت الأرض تجد فيه أقصى ما يمكنك الحصول من البرودة في قيظ الصيف اللافح...».

٤- الخانات والأسواق والحمامات:

كان للتقدم الاقتصادي التجاري الذي أحرزته الموصل خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أثره البين في تنشيط بناء بعض المرافق الحيوية في المدينة. فقد أدى ازدهار الحركة التجارية وازدياد نشاط القوافل بين الموصل وسائر المدن الأخرى، وتحول الموصل بالتالي إلى سوق كبيرة، إلى اهتمام كثير من الأسر التجارية وصاحبة النفوذ بإنشاء الأسواق والمتاجر والخانات، كما أنشئت الحمامات العامة والمقاهي. وليس أدل على مدى النشاط المعماري الذي طرأ على الموصل خلال هذا العصر، إن تافرنييه الذي زارها سنة (١٦٤٤م) كان قد وصف المدينة بأنها: «تكاد تكون برمتها خربة، وليس فيها سوى سوقين معقودين... وخانين حقيرين مكتظين بالمسافرين...».

هذا في حين كان في الموصل في أواسط القرن الثامن عشر- على ما يذكر نيبور- الذي زارها سنة (١٧٦٦م): «... في الموصل خمسة عشر خاناً أو بيوت عامة يأوي إليها الغرباء، وبينها خمسة خانات صغيرة ورديئة أما البقية فهي كبيرة وواسعة وقد بنيت خصيصاً لتوفير الراحة، أما المقاهي والحمامات والأسواق فإن القسم الأعظم منها جميل وخلاب، على إن أجمل وأحسن هذه المحلات العامة تعود إلى أقرباء والي الموصل الحالي وهو أمين باشا...».

ويقدر دوبريه عدد الخانات الرئيسة بالموصل في اوائل القرن التاسع عشر، بأثني عشر خاناً منها اثنان هما خان العلوة وخان المفتي لكل منهما ست وعشرون حجرة ويستعملان ايضاً لأغراض شتى كاعتقال الغرباء، وكمخزن لبضائع الكمارك التي تفرض عليها الرسوم.

ويصف بكنغهام المقاهي والحمامات في الموصل وكان قد زارها عام (١٨١٦م) بقوله: «... والمقاهي في الموصل كثيرة وواسعة بوجه عام. والبعض منها قد يحتل احد الشوارع بطوله ويمتد زهاء مائة يارد حيث تصف المقاعد على جانبي الشارع يظلله سقف من الحصر ... ويقدر عدد الحمامات بحوالي الثلاثين. ومع إنني قصدت بعض الحمامات الكبيرة إلا أنني لم أر فيها ما يمكن مقارنته بحمامات القاهرة أو دمشق...».

وذهب الرحالة هود الذي زار الموصل عام (١٨١٧م) انه في الموصل: «... حمامات بديعة وهي أجمل ما رأيته في هذا المضمار فإن واجهتها هي من المرمر وهي لطيفة ونظيفة. وبين الفنادق (الخانات) الستة عشر المفتوحة لإيواء المسافرين عشرة أو اثنا عشر خاناً منها كبير جداً. وفيها يجد المرء كل ما يحتاج إليه حسب عادات الشرق وتقاليده...».

ويصف بكنغهام أسواق الموصل بقوله: «... أما الأسواق فإنها وإن لم تكن مثل أسواق القاهرة في جمالها إلا إنها تتميز عنها بشيء واحد هو كثرتها ووفرة ما فيها من الحاجات والضروريات التي تأتيها من المناطق الجبلية. على إن هذه الأسواق مفتوحة ومغطاة بسقوف

وهي قــذرة بصفــة عامة وغير متناســقة مما يشاهد أمثاله في هذا الضرب من المدن الشرقية. ولا توجــد ســوى ســوق واحــدة تبــاع فيهــا الســلع الغالية وهي أفضل الأســواق في بنائها وتصميمها، وهي تغص عــلى الدوام بأصناف عديــدة من الســلع الثمينــة مما تنتجــه اوربا والهند...».

وجــون آشر الذي زار الموصــل عام (١٨٦٤م) يصف لنا الأسواق بقوله: «... الأسواق واسعة، لكنها قــذرة ومحرومة مــن العنايــة اللازمة، مزدحمــة في اغلب الأحيان يلتقــي فيها الأكراد والأعــراب للتعامل ومبادلة الســلع والمنتجات. أصحاب الدكاكين اغلبهم مسيحيون ومعظمهم مــن الأرمن الذين يبــدو في قابلياتهم مقدرتهم في شــؤون التجارة. واغلب الســلع في الأسواق الأصبــاغ والأقمشــة القطنية بجانــب الأطعمة والمأكولات التي يحتاجها الســكان وفيها كثير من مصنوعات مانجستر وشفيلد...».

ويتكلــم بدج عــن أســواق الموصل ايضــاً وقد شــاهدها ســنة (١٨٨٩م) ويصف لنا الســلع المعروضــة فيهــا فيقــول: «... الســوق بنيــة عالية نســبياً وهي ناشــطة التجارة، ولم أجد فيهــا حوانيت تبيــع العاديات كمــا ليس لدى باعــة الأقمشــة إلا ما اســتورد من مانجســتر ومنســوجات حديثة جيء بهــا من حلب وعبثاً حاولت العثور على القماش المعروف بالموصلي الــذي انبثــق اســمه من اســم مدينــة الموصل واشــتهر في الشركة كله بســبب لونه اللطيف، ونعومة ملمســه. إن كل ما عرض عليَّ كان من صنع انكلــترا وقد لُفَّتْ حوله ألــواح انكليزية، وغلف بــورق انكليــزي وطبعت عليه أســماء صانعيه من الانكليــز... ورأيت في دكان جرار أدويــة ايطالية عليهــا أســماء العقاقير باللغة اللاتينيــة... وكان عرض الخضر أيام الســوق لطيفــاً حقــاً، لكن الأســعار على ما تــراءت لي كانت عالية، ولا توجد في المدينة ســكائر ولكن (التتن) هو الــشيء الوحيد الذي يمكن شراؤه، وهو يستنبت في جبال كردستا. انه يباع بشكل أوراق ضخمــة، ويقــوم المشــتري بتقطيعهــا وسحقها باليد ثم يوضع في ورق خاص ويلف ويدخن. إن هذا النوع القديم من السكائر رفيع من طرف وغليظ من الطــرف الآخر وكثيراً ما تنفك فيتساقط ما فيها وهو متقد على المدخن».

- **الهوامش:**

(١) هو الدكتور سهيل بطرس متي بهنام قاشا ولد في عام (١٩٤٢م) ببلدة قره قوش (باخديدا) مركز قضاء الحمدانية في محافظة نينوى، من أسرة علمية معروفة تنتمــي لطائفــة السريــان الكاثوليك، كمــا كان والده بطرس قاشا(١٩١٠-١٩٨٩م) كاتب ومترجم وشاعر.

(٢) للإطلاع على النص الكامل لرحله بنديه ينظر: birej. name/mektebe/7.pdf.

(٣) محمــود الزيباوي، أطلال الكوفة ومزارات بغداد وطرق الموصل،١٨ /١/ ٢٠١٠ م

(٤) للتفاصيل ينظر: ســهيل قاشــا، الموصل في العهد الجليــلي (١٧٢٦-١٨٣٤م)، ط١، بيروت، دار التنوير للنشر،٢٠١٠، ٤٧٨ص.

AL-Mosul in the Memorandums of foreign travelers during the Ottoman rule

By: Dr. Sameer Abdul Rasoul Al Obeidi /Al-Mustansyriah University

Al-Mostansiriyah center for Arab and international studies

Abstract

The location of Mosul has been very important in the history of the city because it has made it a commercial and cultural center, since its establishment so far, it is like Baghdad, Basra, Aleppo and Damascus is located on the famous Silk Road, both land and sea, has flourished as Baghdad in ancient times, and suffered from the devastation of all cities Middle East after the fall of the Abbasid state in 1258 ..

The author focused on the conditions of the city of Mosul during the Ottoman period between 1534 and 1918. He visited dozens of travelers from Ravelf, who traveled to the city in 1556, Tavarnier 1791, Jackson 1797, Niraza Abu Talib 1864, 1889 and Wickram 1898, Major Sun 1909, and others, the travelers in their memoirs and observations have left us a lot of public and personal impressions telling us about the conditions of the city of Mosul and its countryside.

Dr. Suhail Qasha studied the city of Mosul in terms of administrative, cultural, social and economic aspects during this period of the ancient history of Mosul through the translated or non-translated memoirs. The author of the book was able to view these memoirs and based on more than 20 travelers who visited Iraq And visited the city of Mosul in close or spaced intervals, it is a fascinating book about this ancient city in which the author dealt with all large and small scientific sense.

The first part (pp. 9-73) consists of five sections dealing in succession with the system of government and administration (pp. 25-35) and the social life (pp. 35-44), where the author dealt with social life, population statistics and population traditions and traditions. (Pp. 44-54). The author dealt with the patterns of agriculture, industry, commerce, and the urban situation (pp. 58-73) through the walls and fortresses that were used and the role Palaces, taverns, markets and bathrooms.

The second part (p. 75-150) included the text of the voyage of the French traveler Henry Bendier (a trip to Kurdistan in Mesopotamia, which visited Mosul for the period (8-15/10/1885) with a number of companions, and this text extract (pp. The book concludes with the third section (p. 151-174) on "Mosul in 1924", which ends with the talk of the Old City, linking the past and the recent past with the style of the city of Mosul and its social, economic and intellectual life. Is not without emotional soul; we will present the book by virtue of its historical importance and its encyclopedic nature.

